# القســـم الخامـــس
# الحياة الاجتماعية والحياة عند المسلمين

نظم الله تعالى حياة المسلمين في مختلف النواحي والأبعاد ، وأكد الله تعالى ونبيهﷺ على العلاقة الاجتماعية بين الناس ، فكانت آية من آياته جل وعلا . وذكر القرآن الكريم الكثير من طيب هذه العلاقة واعتبرها آية من آياته :

قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤)﴾ [ الروم] .

هذه بعض الآيات ومنها اختلاف الألسنة والألوان ، ومنها أن خلق للنفس زوجاً منها وجعل بينهما مودة ورحمة ، ومن آياته أن البشر كانوا تراباً فإذا هم بشر ينتشرون ومن آياته .. ومن آياته ... والمطلوب في هذا أن تنظيم المجتمع المسلم من صنع الله وتوجيهه وهدي النبي وممارساته .. وهذا وبدون مقارنات ، فإن مجتمع المسلمين يعتبر المجتمع الفاضل بين البشر ، ومثل هذا الذي تصوره الفلاسفة ، لم يكن بأي حال يقارب مجتمع الإسلام أو يدنو منه ، فالإسلام وَجَّهَ الفرد وَرَبَّاهُ وعلمه ، وَحدَّدَ له الحدود ، وَنظَّمَ له شؤونه ، وهداه إلى سواءَ السبيل ، رجلاً أو امرأة، كبيراً أو صغيراً .. وفي جميع مراحل عمره سن له السنن الخيرة في كل خطوة يخطوها على الأرض ، أو يدخل في هذه الخطوة الزمان والمكان صغيراً ، يافعاً شاباً ، رجلاً ، شيخاً ، كهلاً.. كل له دوره الذي يعرفه ويلتزم بجوانبه وأوامره ونواهيه ، ثم إن الإسلام نظم الأسرة تنظيماً يقوم على المحبة والاحترام والتفاهم والتعاون ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢) ﴾ [ طـه] .

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [ التحريم ] .

وجعل التعامل في ظل الأسرة عبادة ، يثاب فاعلها ويعاقب تاركها ، سواء من الأبوين أو الأولاد ، أو العلاقة بين الزوجين ومع ذوي القربى ، وقد حفلت توجيهات الله تعالى للمؤمنين بكل معاني العطف والمحبة ؛ التي تنبع من هذه العلاقة ، يظللها الإيمان ، ويتعامل بها المجتمع المسلم الذي عرف بأنه أفضل المجتمعات التي وجدت على الأرض ، من حيث التنظيم في الزواج والإنجاب ، والنفقة،والميراث، والتربية ، والدعوة . فقد حفلت هذه العلاقات بكل ما يطلب من النفس البشرية من تعامل بين الناس . قال تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠)** ﴾ [النساء ].

وقد تكررت في كتاب الله آيات تنظيم الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم ، والعلاقة بينهما بشكل يقوم على المحبة والوئام والتسامح ، ومحاربة النفس التي يميل بها الهوى ، والتي في بعض فطرتها البطش والتسلط قال تعالى في مجمل آيات : ﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)** ﴾ [ الأنعام ] .

وقال تعالى في سورة الإسراء : ﴿ **لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولا (٢٢) وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلا مَيْسُورًا (٢٨) وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا (٣٢) وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ**

الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٣٣) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولا (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا (٣٥) وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا (٣٦) وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولا(٣٧)﴾ [ الإسراء ] .

في هذا الدرس تُربَطُ قواعد السلوك والآداب والتكاليف الفردية والاجتماعية إلى العقيدة في وحدة الله ، كما تربط بهذه العروة الوثقى جميع الروابط وتشد إليها كل الوشائج في الأسرة وفي الجماعة وفي الحياة . وفي هذا الدرس يعرض شيئاً من أوامر هذا القرآن ونواهيه ، مما يهدي للتي هي أقوم ، ويفصل شيئاً مما اشتمل عليه من قواعد السلوك في واقع الحياة .

يبدأ الدرس بالنهي عن الشرك ، وبإعلان قضاء الله بعبادته وحده ، ومن ثم تبدأ الأوامر والتكاليف . بر الوالدين ، إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل حقوقهم ، في غير إسراف ولا تبذير . وتحريم قتل الذرية ، وتحريم الزنا ، وتحريم القتل ، ورعاية مال اليتيم ، والوفاء بالعهد وتوفية الميزان ، والتثبت من الحق ، والنهي عن الخيلاء والكبر ، وينتهي بالتحذير من الشرك فإذا الأوامر والنواهي والتكاليف محصورة بين بدء الدرس وختامه ، مشدودة إلى عقيدة التوحيد التي يقام عليها بناء الحياة [١] .

وهكذا تتضافر الآيات والأحاديث على تقرير ذلك المنهج الكامل المتكامل الذي لا يأخذ العقل وحده بالتحرج في أحكامه ، والتثبت في استقرائه ، إنما يصل ذلك التحرج بالقلب في خواطره وتصوراته . وفي مشاعره وأحكامه . فلا يقول اللسان كلمة ولا يروي حادثة ولا ينقل رواية ، ولا يحكم حكماً ولا يبرم الإنسان أمراً إلاّ وقد ثبت في كل جزئية ومن كل ملابسة من كل نتيجة ، فلم يبق هنالك شك ولا شبهة في منحها [٢] .

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠)﴾ [الإسراء ] .

كما أن توجيهات الرسول ﷺ كانت مواكبة لأوامر الله تعالى في تنظيم الأسرة المسلمة وحفلت السنة المطهرة بالكثير الكثير من الأحاديث الشريفة ، وهذا بعض منها :

---

(١) انظر : في ظلال القرآن – سيد قطب ٤ / ٢٢٢٠ .

(٢) المصدر السابق ٢٢٢٧/٤ . راجع التفسير المنير ١٥/ ٤٨ فما بعد .

عن ابن سعد قال : قلت : يا رسول الله ، أي الأعمال أحب إلى الله عز وجل ؟ قال : " صل الصلاة لوقتها " ، قلت ثم أي ؟ قال : " بر الوالدين " ، قلت : ثم أي ؟ قال : " ثم الجهاد في سبيل الله " ولو استزدته لزادني [(١)] .

عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : " من أحب أن يوسع الله في رزقه ، وينسأ له في أثره ، فليصل رحمه " [(٢)] .

فالفرد المؤمن ، المشكل للأسرة المؤمنة هو عماد الحياة الاجتماعية في جميع الشعوب "البشر" ؛ حتى أن الأسرة فطرة الله تعالى لمخلوقاته .. لكن الأسرة الإسلامية رعاها الله تعالى بأوامره،ورسمها الرسول ﷺ بتوجيهاته،وطبقها المسلمون باعتبارها باباً من أبواب عبادة الله تعالى بتنفيذ أوامره والنهي عما أمر به المسلمون أن ينتهوا عنه ، حرم كثيراً من العادات التي تهدم الأسرة ومنها أولاً الزنى،وجعل حده من أصعب الحدود حيث الموت " بالرجم " للمحصنين،والجلد لغير المحصنين ، حتى لا يتعدى أحد على أحد،ولا ينظر أحد إلى ما أوتي أحد، في ترتيب وتهذيب وتربية فريدة ، في مجتمع مثالي . لا ينحرف عنه إلاّ من زاغ قلبه ، وغلب عليه الهوى ، واستهواه الشيطان، كما أن الله تعالى قد حدد الزواج،وأوجب العدل ، وأوجب النفقة وحددها ، وأودع في قلوب الآباء محبة الأبناء وأوصى الأبناء بمحبة الآباء ، وجعل الزواج التحام نفسين لتكونا نفساً واحدة بالزواج،ونظم النسل،وأوجب إلحاق الولد بالوالد ، وجعل أساس الأسرة النسب،ومكن المسلمين من أن تكون جميع علاقاتهم نوعاً من العبادة ، وليس مجرد أوامر أدناه .

ورد في الأثر عن رسول الله ﷺ : عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى الرسولﷺ فقال : يا رسول الله نبئني بأحق الناس مني صحبة ، فقال : " نعم والله لتنبأن " قال : من ؟ قال : " أمك " قال : ثم من ؟ قال : " أمك " قال : ثم من ؟ قال : " أبوك " [(٣)] .

وفي سياق العلاقة الوطيدة بين أفراد الأسرة جوانب غامضة يحسن إظهارها ، وإبداء ما خفي منها ، حتى يستقيم أمر الأسرة ويحسن سيرها ، وتنبت بعد ذلك المسلم الصالح .

جاء رجل إلى عمر بن الخطاب ﷺ يشكو إليه عقوق ابنه . فأحضر عمر الولد وأنبه على عقوقه لأبيه ، ونسيانه لحقوقه ، فقال الولد : يا أمير المؤمنين أليس للولد حق على أبيه ؟ قال : بلى، قال : فما هي يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : أن ينتقي أمه ، ويحسن اسمه ، ويعلمه الكتاب

---

(١) إسناده صحيح ، أخرجه أبو ليلى (٥٣٢٩) ، وابن حبان (١٤٧٦) ، والطبراني في الكبير (٩٨١٨) ، وأخرجه الطحاوي في " شرح مشكل الآثار " ٣ / ٢٨ ، مسند أحمد تحت رقم (٣٩٩٨) _ مؤسسة الرسالة .

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٦٧) ، ومسلم (٢٥٥٧) (٢٠) ، وأبو داود (١٦٩٣) ، ومسند أحمد ٢٠٩/٢١ رقم (١٣٥٨٥) .

(٣) حديث صحيح. أخرجه مسلم ( ٢٥٢٨) ،وابن أبي شيبة ( ٥٤١/٨) وابن ماجة (٢٧٠٦) وغيرهم ؛ مسند أحمد ٣٩/١٥ رقم (٩٠٨١) .

(أي القرآن ) . قال الولد : يا أمير المؤمنين إن أبي لم يفعل شيئاً من ذلك . أما أمي فإنها زنجية كانت لمجوسي ، وقد سماني " جُعلاً " أي " خنفساء " و لم يعلمني من الكتاب حرفاً واحداً .

فالتفت عمر إلى الرجل وقال له : جئت إليَّ تشكو عقوق ابنك ، وقد عققته قبل أن يعقك وأسأت إليه قبل أن يُسيء إليك " ؟ ! .

وكذلك حَمَّلَ عمر الرجل حين أهمل تربية ابنه مسؤولية عقوق ولده له . ومما يُذكر في كتب السير : أن معاوية بن أبي سفيان ﷺ غضب على ابنه يزيد مرة ، فأرسل إلى الأحنف بن قيس ليسأله عن رأيه في البنين فقال : " هم ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم أرض ذليلة ، وسماء ظليلة ، فإن طلبوا فأعطهم ، وإن غضبوا فأرضهم ، فإنهم يمنحونك ودهم ، ويحبونك جهدهم ، ولا تكن عليهم ثقيلاً فيملوا حياتك ويتمنوا وفاتك "[1] .

فالأسرة في الإسلام مجتمع نظيف طاهر ، يقوم على المحبة والتعاون والنصيحة والتقويم ويبتعد عن الاستغلال والكراهية والتفكك الأسرى ؛ الذي غزا كثيراً من المجتمعات الأخرى . المرأة في نظام الأسرة هي أم وأخت ، وزوجة وابنة . وليس دون ذلك من حال ، والمال في الأسرة المسلمة منضبط بالملكية والعدالة في توزيعها ، وكذلك في الإنفاق والجَني بعيداً عن المحرمات التي استوجب الإسلام قصاصاً لمن يخرج عن نطاقه ، كالسرقة والرشوة والكسب الحرام والابتزاز والربا والاستغلال . وحدود العلاقة مؤكدة بين أفراد الأسرة ، وقائمة على الإيمان والحياة والاحترام والتقدير ، والرعاية وضغط المرض والعجز والكبر واليتم والطلاق والترمل ، والعنوسة وغير ذلك ، كما يبنى الإسلام الأسرة على العفاف والعفة ، وتحرى صفات الإيمان والإسلام ، وأكد على اختيار العلاقة بين الزوجين ، وحدد العلاقة بين الأخوة والأخوات .

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " تنكح المرأة على إحدى خصال ثلاث. تنكح المرأة على مالها ، وتنكح المرأة على جمالها ، وتنكح المرأة على دينها ، فخذ ذات الدين والخلق تربت يمينك " [2] .

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام : عبدالله علوان - دار السلام للطباعة والنشر ط ٩٨٧ انظر فصل التربية الإيمانية ص ١٥٥ فما بعد .

(٢) اللفظ لأحمد ٢٨٧/١٨ رقم (١١٧٦٥) والحديث صحيح لغيره . أخرجه ابن أبي شيبة ٣١٠/٤-٣١١ وعبيد بن حميد في "المنتخب" ٩٨٨ والبزار ( ١٤٠٣) زوائد ، وأبو يعلي ( ١٠١٢ ) وابن حبان ( ٤٠٣٧) ، ويشهد له حديث أبي هريرة عند البخاري (٥٠٩٠ ) ومسلم (١٤٦٦) ولفظه عند البخاري " تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك " . قوله : " تربت يداك " بكسر الراء : من ترب إذا افتقر ، فلصق بالتراب ، وهذه الكلمة تجري ولسان العرب مقام المدح والذم،ولا يراد بها الدعاء على المخاطب دائماً ، وقد يراد بها الدعاء أيضاً . والمراد ها هنا إما المدح أي : طلب ذات الدين أيها العاقل الذي يحسد عليك لكمال عقلك . فيقول الحاسد حسداً : تربت يداك أو الذم ، أو الدعاء عليه بتقدير إذا خالفت هذا الأمر .

وأكد الإسلام على المرأة ، وأعطاها جميع حقوقها التي أقرها الله تعالى بما يناسب تكوينها وخلقها الذي خلقه الله لها ، ورفع شأن المرأة إلى رتب علية لم تصلها امرأة في العالم حتى ولو كانت ملكة ، أو مسؤولة ، أو حاكمة ، أو محكومة . فالمرأة المسلمة هي كل الأخلاق والعفة والدين والعلم والأدب والتميز عن جميع نساء العالمين ورفع الإسلام نساء النبي إلى مراتب أعلى وأسمى من كل النساء .

ثم انتقل الإسلام إلى صياغة المجتمع المسلم صياغة مختلفة تماماً عن المجتمعات الوثنية أو المادية أو المنحرفة عن منهج الله جل وعلا . قال تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** (١٣)﴾ [الحجرات] وقال تعالى في نفس السورة:﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** (١٥)﴾ [ الحجرات] .

إن المجتمع الإسلامي بني على الفضيلة والإيمان والتضحية والإيثار ، والصبر والعفة والقوة والكرامة . وما تخلى المجتمع المسلم عن صفاته أو بعضها إلا وأذله الله . وتلك مقولة لعمر بن الخطاب ﷺ : " نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، وما ابتغى قوم العزة بغير الله إلاّ ذلوا " .

وقد عبر القرآن الكريم عن المجتمع المسلم في كثير من المواقع :﴿ **مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ** (١٠) **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** (١١)﴾ [فاطر ] .

فالمجتمع المسلم الذي فطر على الحب والتضحية والعزة .. هو غير مجتمع المسلمين الذي نراه الآن من التردي وانتشار العادات الغربية أولاً ، والذي تمكن الشيطان منه فأضله ، وانتشرت عادات غير إسلامية في هذا المجتمع كالحسد والتباغض ، والاستغلال ، وأكل حقوق الناس ، وإباحة الربا ، والسرقات ، والمفاسد ما ظهر منها وما بطن .. إن هذا المجتمع من صنع الناس الذين تمكنوا من ناصية أمورهم ، وأمور الناس بعد أن تخلوا عن القيم والأخلاق وأوامر الدين الإسلامي والفضائل التي أمر بها ، وانساق وراء المادية المنبعثة من المجتمعات النصرانية أو الوثنية ، والتي أصبحت من أعمال الشيطان والذين تمكن من إغرائهم . ومع هذا فيبقى المجتمع المسلم رغم كل التردي من أفضل المجتمعات الإنسانية على الإطلاق . ومع المقولة القائلة أن الغرب والمجتمع الغربي كما قال أحدهم : وجدت الإسلام و لم أجد المسلمين ؛ من حيث التعامل والتعاون والانضباط ،

والعمل والجهد ، ووجدت في مجتمع المسلمين المسلمين ولم أجد الإسلام ، نتيجة تـأثر المجتمع المسلم بصفات الغرب السيئة ، وترك الفضائل والصـدق وحسن التعامل والوفاء بالوعد وغـير ذلك من أمور .

ما زال المجتمع المسلم يقيس على الأعراف التي توارثها عن الأجيال المسلمة السابقة ، ولا زالت عوامل الانضباط الخلقي والمعاشي والحياتي قائمة ؛ رغم تحول شريحة كبيرة من هذا المجتمع عن هذه العادات والتقاليد ، والانخراط في منظومة التطور الغربي ، الذي طرح كل القيم ، وكل الأعراف ، وكل الأخلاق . وما زال هناك صراع داخل المجتمع الإسلامي بين الأصوليين التقليديين ؛ الـذين يتخذون أعراف الإسلام منهجاً ومبدأ يلتزمون به ويدافعون عنه ، وبين المحدثين التطويريين ، الذين تخلوا عن كل هذه القيم . الصراع ليس بين جيل كبير آيل للانقراض ، وبين مجتمع صـاعد ، أو شباب آيل للتحكم في هذه الأمة .

الواقع أن مثل هذا الصراع نجده في المجتمعات الأخرى المتأثرة في الحضارة الغربية ، لكن المجتمع المسلم على خلاف ذلك ، فالصراع ليس بالطبقة والعمر والسن والكبار والصغار ، لكنه بين الملتزم المسلم طفلاً شاباً مراهقاً ، يافعاً رجلاً ، شيخاً وبين آخرين من نفس الشريحة تقريباً سـواء بـين الرجال أو النساء ، وهذه ظاهرة ملفتة للنظر تماماً ، فإن الصحوة الإسلامية لم تأت جيلا بعينـه ، لكنها جاءت إلى مختلف شرائح الأعمار . عاد بها الكبير إلى دينه وجعلها الصغير له مبدأ أو هدفاً وعقيدة وسلوكاً . الصراع بين طالب في المرحلة الإعدادية أو الثانوية وبين أستاذه ، بين طالـب الجامعة وأستاذه ، بين الشاب وأبيه وأمه الذين عدا عليهما تأثير الغرب نتيجة الاحتكـاك زمـن الاستعمار ، أو التأثر بالهجمة الغربية على العالم الإسلامي ، من الإعلام ، والثقافة ، والـتعلم ، وكذلك بعض الدارسين الذين درسوا في الغرب وعاشوا تلك الحياة .

فالمجتمع المسلم الذي ينقسم إلى هذين القسمين : الأصوليون والمستغربون يعيشان تحت سقف واحد ، وبينهما الكثير من المنازلات ويتحقق النصر حيناً لهذا وحيناً لذاك ، لكن الراصد لاستمرار هذه الصدامات هو أن العودة إلى التيار المحافظ أكثر بكثير من ترك التيار إلى التيـار الحـديث أو المعروف بالحداثة ، الصراع ليس فقط بالفكر فقد تعداه إلى الشعر والأدب والحكـم والسياسـة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية ؛ التي تتميز عادة بالتوجه لبناء الأسرة بين الشباب ، والاختيـار الذي يقع بين الزوجين لتأسيس أسر المستقبل ، وحتى في الفن والموسيقى والغناء ، وكـل مالـه ارتباط بحياة الإنسان في المجتمعات الإسلامية .. ولم ينج منه الطعام والشراب واللباس والعمـارة والبناء ، وكل ما يمكن أن يستخدم في حياة الإنسان المسلم في العالم الإسلامي .

إن الصراع الذي نحن بصدده عادة يتم بالطرق السلمية ، و لم يفد الكلام إلاّ عندما تبنت بعض الأنظمة في الدول الإسلامية الحداثة ، وبالتعاون مع بعض القوى العالمية الخفية منها والظـاهرة . أدى ذلك إلى صدام خطير كان ضحاياه من المسلمين ؛ لأن القوى المحركة في العالم والقوية فيه هي للسيطرة المادية التي تمارسها أكثر الشعوب والحكومات في العالم . خاصة عالم النصارى ، ويليـه البوذيون وأقله الهندوس وبعض محاولات المناطق الإسلامية للتحرر والسيطرة قوبل بعنف مخيف ، وأبيدت تماماً قوى إسلامية كان لها الدور البارز في حياة شعوبها . لكـن القضـايا الاجتماعيـة الأساسية ما تزال هي الفيصل في هذا المجال ، على الرغم من كل التطورات التي تحصلت في العالم الإسلامي في قضايا الزواج والأسرة والمجتمع والعلاقات الأسرية والمجتمعية من حسـن جـوار ، والتعاون ، والتحابب ، وتطبيق توصيات الإسلام بمعاملة الجيران ، والطعام واللباس والمعاش وحتى العلاقات الاجتماعية بين الناس ، والاختلاط والانحلال وغير ذلك من العادات الموجودة .

**الترابط الاجتماعي في الإسلام :**

إن تعاليم الإسلام التي رسمت خطوط المجتمع الإسلامي ، قد غيرت كثيراً من العادات السيئة التي تتفشى عادة بين الناس ، نتيجة للتأثر بالكافرين والضالين ، واتباع الشيطان ، وقد تمكنت هذه التعاليم التي تحولت إلى عادات وأعراف وعبادة ، إلى تميز المجتمع المسلم عن سواه من مجتمعـات العالم ويمكن لنا أن نلخص هذه العادات وما أرست في نفوس المسلمين من أعراف :

١- يأتي على رأس تعاليم الإسلام تحريم الزنا ، واعتبرت _ كما سبق القول _ من الكبائر التي تؤدي إلى الرجم والجلد ، كما أنها اعتبرت من أكثر مفاسد المجتمع ، ومن أكبر عوامل تهديمـه ، وقد تركت تعاليم الإسلام في هذا المجال الأثر البالغ في نفوس المسلمين ، ومع أن انعدام القصاص في هذا المجال في المجتمع الإسلامي ، فإن تعاليم الإسلام قد خففت كثيراً جداً من انتشـار هـذه الظاهرة ، التي تحول بها المجتمع إلى مجتمع يقوم هو بالقصاص في غيبة حكم الإسلام ، فأكد المجتمع على قضية هامة وهي الشرف ؛ واعتبر الزنا طعنا قاسيا في الشرف ، ويقـوم المجتمـع راضـياً بالقصاص سواء من الرجل أو المرأة ، وهذه المراقبة القاسية من المجتمع تمكنت من تخفيف انتشـار هذه العادة . كما أن عدم وجود القصاص باعتباره تطهيراً لمن يأتي بالفاحشة في الدنيا كانت رادعاً أيضاً خوفاً من الله والعقاب في الآخرة . واعتبر الزنا قرينا للشرك ، وقتل النفس ، وتقدم في العقوبة على كثير من منهيات الإسلام كالسرقة والرشوة وأكل مال الآخرين . قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ**

عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١)﴾ [ الفرقان ] .

وهناك الكثير من الشواهد الأخرى في القرآن والسنة ، وتطبيق الحدود حسب حيثيات ومجريات القضية حتى يومنا هذا .. ولذلك فإن ابتعاد المسلمين عن هذه الآفة تعتبر من أهم العوامل المؤثرة في ترابط المجتمع وقوته وتميزه عن المجتمعات الأخرى .. كما يتبع هذه الظاهرة الخبيثة ظواهر أخرى كاللواط والاتصال الجنسي غير المشروع سواء أكان زناً أم أقل منه كالمفاخذة والنظرة والقبلة والخلوة وكل ما يمكن أن يوصل إلى هذا ، واعتبر أيضاً من الموبقات التي يراقب المجتمع وقوعها وهو الذي يتكفل في كثير من الأحيان القصاص عليها .

**الزواج والتعدد** :

اعتبر الإسلام الزواج المشروع الطريق الأمثل والأفضل لبناء الأسرة وبناء المجتمع ، ولقد أتينا على التذكير في هذا الموضوع في مكان آخر .

الزواج الطريق الذي يؤدي إلى تمتين الأسرة والنسل ، وحفظ الأخلاق والبعد عن الفواحش ، وسهل الإسلام قضايا الزواج والتعقيد من المجتمع ـ إن وجد ـ وليس من الدين . فقد بسط الإسلام الإجراءات وفرض الولي والمهر والشهود والقضاء ليكون الأوثق والأفضل والأحسن . والزواج سنة الله تعالى في خلقه الذي خلق من كل شيء زوجين اثنين . ويأتي التعدد في الإسلام من أنجع الوسائل الشرعية الكفيلة بالبعد عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وجعل التعدد حلاً لكثير من أمراض المجتمع أو أخطاره كقلة الإنجاب ، والمرض ، وفقدان التجانس ، وبكل هذا أبقى الإسلام على الصلة ، وجعل التعدد الدواء الناجح لكل الأمراض الاجتماعية التي تفتك بالمجتمع ، إن لم يكن لها ذلك التنظيم .

الشواهد الآن من تردي المجتمعات النصرانية وتفكك الأسرة ، والزنا ، وانحراف جنسي كل هذا للتأكيد على وحدة الزواج من واحدة ، والتشدد كذلك في العشرة الزوجية الغير موفقة والغير قابلة للاستمرار . ولقد حددت حدوداً قاسية للتعدد منها الإنفاق ، والعدل ، وعدم التفريط والإفراط في العلاقات بين البشر . وقد قضى التعدد على الانحراف بالشهوة نحو الحرام والزنا ، وضبط وبشكل فاعل النوازع البشرية نحو الجنس الآخر .

وفي الوقت ذاته قضى على آفات اجتماعية خطيرة تؤدي كلها إلى الفاحشة إن انتشرت أو سيطرت على أفكار الناس وعاداتهم وهو القضاء نسبياً على العنوسة " عنوسة المرأة " وعلى بقاء الكثير من المطلقات بدون زواج ، وعلى الأرامل اللواتي فقدن أزواجهن بالكوارث البشرية ربما

تنال الرجل وحده كالحروب ، والسفر ، والترحال . وزيادة نسبة النساء ، وهي التي يكون عادة حكامها الرجال ، وقد أثبتت نتائج الحربين العالميتين تفشي هذه الظاهرة المخيفة والملفتة للنظر ، بقتل الرجال وبقاء النساء بدون رجال . وبذلك فإن التعدد مع موجباته وضوابطه ، والإقدام عليه كعبادة عند المسلمين ، وقناعات المرأة به يعتبر الحل الأمثل للتوازن المطلوب بين الجماعات البشرية، ويعتبر بالتأكيد أنجع حل فرضه الله تعالى للقضاء على أخطار التخلخل البيتي والسكان بين الناس. قال تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلا تَعُولُوا(٣)وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا(٤)وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلا مَعْرُوفًا(٥) وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦)﴾ [ النساء ] .

ويبقى التعدد في إتيانه لغاياته أفضل ما يمكن أن يوصف للإنسان للخلاص من دوافع الشر .

**الحكمة من تعدد الزوجات :**

الوضع الطبيعي وهو الأشرف والأفضل أن يكون للرجل زوجة واحدة لأن الغيرة مشتركة بين الزوج والزوجة . فكما أن الزوج يُغار على زوجته كذلك الزوجة تغار على زوجها ، ولكن الإسلام أباح التعدد لضرورة أو حاجة وقيده بقيود .. القدرة على الإنفاق ، والعدل بين الزوجات، والمعاشرة بالمعروف ، والإباحة لأحوال استثنائية منها :

**١- عقم الزوجة** : الرجل بالفطرة يحب إنجاب الولد ، وأن تذهب ثروته ونتيجة جهوده لأولاده ، فإذا كانت المرأة عاقراً لا تلد ، فأيهما أولى : الطلاق أم تعدد الزوجات ؟ لا شك بأن الزواج من امرأة ثانية أخف ضرراً على الزوجة الأولى بشرط صون كرامتها ، وأداء حقوقها كاملة غير منقوصة .

**٢- كثرة النساء** : إن المواليد من النساء ( الإناث ) أكثر من الذكور في غالب البلاد وقد تكثر النساء ويقل الرجال عقب أزمات الحروب ، فيكون الأفضل تعدد الزوجات تحقيقاً لعفاف المرأة وصوناً لها عن ارتكاب الفاحشة ، وتطهيراً للمجتمع من آثار الزنا وما يعقبه من انتشار الأمراض وكثرة المشردين اللقطاء .

٣- **الحالة الجنسية** : قد تصاب المرأة بالبرود الجنسي ولا سيما عقب بلوغ سن اليأس أو قبله، عند استئصال الرحم بسبب مرض ، وقد يكون الرجل ذا قدرة جنسية زائدة أو شبق دائم مستمر. وهو لا يكتفي بامرأة واحدة . لعدم استجابتها أحياناً ، أو لطروء الحيض عليها أسبوعاً في كل شهر على الأقل . فيكون اللجوء للتزوج بزوجة ثانية حاجزاً له عن الوقوع في الزنا الذي يضيع الدين والمال والصحة ، ويسيء إلى السمعة .

أما إساءة استعمال بعض المسلمين إباحة تعدد الزوجات كالانتقام من الزوجة الأولى (السابقة ) أو لمجرد الشهوة ، لا لهدف مما ذكر ، فهو تصرف شخصي لا يسيء إلى الأصول والمبادئ الإسلامية ؛ التي أباحت التعدد مقيداً بقيود معينة ، وعلى كل حال ، نادى كثير من فلاسفة الغرب بتعدد الزوجات ، وهو لا شك أفضل بكثير من تعدد العشيقات والمخادنات[1] . إن تعدد الزوجات في الإسلام أمر تُلجِئُ إليه الضرورة ، أو تدعو إليه المصلحة العامة أو الخاصة ، وإصلاح مفاسده أولى من إلغائه ، ولا يجرؤ أحد على الإلغاء ؛ لأن النصوص الشرعية تدل صراحة على إباحته ، وتعطيل النص أو الخروج عليه أمر منكر حرام في شرع الله ودينه .

أما عن زوجات النبي ﷺ والتي يحاول بعض الطاغين الحديث عنه من باب اللمز والغمز ، فإن النبي ﷺ لم يعدد زوجاته إلى تسع بقصد شهواني أو لمتعة جنسية ، واقتصر على واحدة وهي السيدة خديجة رضي الله عنها إلى نهاية الكهولة وهي سن الرابعة والخمسين من عمره الشريف ، وبعد هذا السن تقل الرغبة بالنساء عادة وكان أكثرهن ثيبات لا أبكارا .

والنبي ﷺ راعي الحكمة البالغة والمصلحة الإسلامية في اختيار كل زوجة من زوجاته ، فأما خديجة فهي الزوجة الأولى التي رزق منها الأولاد . وذلك متفق مع سنة الفطرة ، وأما سودة بنت زمعة ، فلتعويضها عن زوجها بعد رجوعها من هجرة الحبشة الثانية ، وهي من المهاجرات الأوليات ، فلو عادت إلى أهلها لعذبوها وفتنوها عن دينها ، وأما عائشة " البكر الوحيدة التي تزوجها النبي ﷺ " وحفصة فلإكرام صاحبيه ووزيريه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وأما زينب بنت جحش فلإبطال توابع عادة التبني مثل تحريم التزوج بزوجة المتبنى ، وأما جويرية بنت الحارث سيد قومه بني المصطلق فمن أجل إعتاق الأسرى . وكان ذلك سبباً في إسلام بني المصطلق ، وأما زينب بنت خزيمة الملقبة " أم المساكين " فلتعويضها عن زوجها عبد الله بن جحش الذي استشهد يوم أحد ، فلم يدعها أرملة تقاسي المتاعب والأحزان ، وكذلك زواجه من أم سلمة ( واسمها هند) كان لتعزيتها بفقد زوجها أبي سلمة ، ولفضلها وجودة رأيها يوم الحديبية . وأما زواجه بأم

---

(١) انظر : التفسير المنير - د . وهبي الزحيلي : ٤ / ٢٤٢ - ٢٤٣ .

حبيبة رملة بنت أبي سفيان بن حرب فلتأليف قلوب قومها وإدخالهم في الإسلام ، بعد أن هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى الحبشة ( الهجرة الثانية ) فتنصر هناك ، وثبتت هي على الإسلام . وأما زواجه بصفية بنت حيي بن أخطب سيدة بني قريظة والنضير من سبي خيبر ؛ فمن أجل تحريرها من الأسر وإعتاقها .

وأما ميمونة بنت الحارث الهلالية ( وكان اسمها برد ) آخر أزواجه بعد وفاة زوجها الثاني أبي رهم بن عبد العزى ، فلتشعب قرابتها في بني هاشم وبني مخزوم [1] .

**الطلاق** :

إن من أهم مقومات قوة المجتمع الإسلامي ومتانته واستمراريته الطلاق . وعلى الرغم من الإيماء بأن الطلاق هو قطيعة الصلة بين الزوجين ، وبأنه يفرق ما تم التواصل فيه ، وعلى أنه يسبب تشرد الأسرة وتفككها ، لكنه في الواقع من الوصفات المفيدة جداً لحالات من الزواج لم يكتب لها التوفيق ، فلم يشأ الله تعالى أن ينقلب اللقاء ( الذي هو من المفروض جنة للزوجين ) ينقلب إلى جحيم وعذاب فقد أحل الله تعالى الطلاق وهو أبغض الحلال إليه . نعم إنه أبغض الأعمال المحللة إلى الله . لكنه في الغالب دواء مفيد وناجحٌ للكثير من العلاقات الزوجية الغير مستقرة . والطلاق والتعدد فسحة للزوجين لبداية حياة جديدة تقوم على الوفاق والمحبة والتفاهم والتناغم والاستمرارية .. وإلاّ فإن المجتمعات الغربية قد انحرفت كلية إلى الفساد نتيجة عدم التعدد والطلاق. وتحول الأزواج إلى الغواية والزنا والصلات الجنسية الغير شرعية ، حتى انقلب الأمر إلى أكثر من مجرد الزنا عند الزوجة والزوج ، تعداه إلى قضية الشذوذ الجنسي من اللواط والسحاق والبحث عن بدائل للعلاقات الزوجية الشرعية ، بزواج الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة ، ومخالفة الطبيعة البشرية ، وكذلك القيم والأعراف الدينية والمبادئ التي نادى بها الأنبياء عليهم السلام . ومن المعروف أن حوالي ثلاثة أرباع البشر يدينون بالديانات السماوية ؛ الإسلام والنصرانية واليهودية ، وبعض الموروثات عن هذه الديانات . فالطلاق يأتي حلاً مناسباً لتعسر مسيرة الحياة الزوجية، ولعدم التجانس وعدم التفاهم ، واستحالة استمرار هذه الحياة . وبذلك فإن الدين الإسلامي الذي نظم – وبشكل فاعل ومذهل – للحياة الاجتماعية جعل هذا المجتمع على سنة من الله ورسوله ، قليلة فيه الفواحش ، نادرة فيه الانحرافات الجنسية ، وليس الإسلام مسؤولاً عن انحرافات بعض المسلمين واستغلالهم هذه المباحات ، لخلق بعض الخلل في المجتمع ، ولكن العموم هو الأقوى وهو السائد في مجتمعات المسلمين .

---

(١) انظر : تفسير المنار ٤/٣٠٢ – ٣٠٥ ، التفسير المنير ٤/٢٤٣ فما بعد بتصرف ، وانظر كتابنا: " نساء في حياة خاتم الأنبياء " الجزء الأول – زوجات الرسول ﷺ .

**المحرمات :**

تحدثنا بإيجاز عن بعض المباحات في الإسلام ، والتي كانت لسد الذرائع وحل المشكلات ، وتجنب المجتمع الزلل والغلو والانحراف ، وهناك بعض المحرمات التي كان تركها أيضاً من أهم أسباب قوة المجتمع ، وأسباب بقائه واستمراره . حرم الإسلام الاختلاط المؤدي إلى الفاحشة وإباحته في محيط الأسرة والمحارم ، الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات وما نزل وما صعد من هؤلاء ، وحرم بعد ذلك غيرهن من النسوة – وليس هؤلاء فقط فإن هناك بعض الأجزاء الأخرى المحرمة مؤقتاً أو تحريماً دائماً – الأمهات والأخوات من الرضاعة – والأخوات والعمات والخالات للزوجة التي هي في عصمة زوجها ، وزوجات الأبناء وأزواج البنات وزوجات الآباء وأزواج الجدات والأمهات .. وهذا الترتيب الدقيق الذي أوجد أقوى الروابط بين أفراد المجتمع ، إذ خلق الحب والتفاهم والتواصل وصلة الأرحام في تدرج متجانس متفاهم متناغم ، يدفع بالقلوب إلى مزيد من الترابط والقوة والراحة للقلب وللنفس .

وتعريف الطلاق لغة : الترك والمفارقة ، يقال : طلقت القوم أي تركتهم ، وتقول : أطلقت الأسير أو السجين ، ويقال : أطلق قدميه للريح : أي جرى مسرعاً .

والطلاق اصطلاحاً : عرفه المالكية : صفة حكيمة ترفع حلية متعة الزوج بزوجته ، وعرفه الشافعية : الطلاق : حل عقد الزواج بلفظ الطلاق ونحوه .

وعند الحنفية : حل عقد النكاح أو بعضه .

وعند الحنابلة : الطلاق هو رفع قيد النكاح في الحال أو المال بلفظ مخصوص . ويمكننا أن نضع التعريف التالي : الطلاق هو الصيغة الدالة على إنهاء الحياة الزوجية في الحال أو المآل الصادرة من أهله في محله قاصداً لمعناه .

وصيغة الطلاق قد تكون لفظاً صريحاً أو كتابة أو بما يقوم عن اللفظ كالكتابة أو الإشارة ، وقد يقع الطلاق بائناً فينهي الحياة الزوجية في الحال . أما في الطلاق الرجعي فالزوجية تستمر قائمة بين الزوجين خلال العدة ، فإذا انتهت العدة ولم يراجع الزوج زوجته بانت منه وانقلب الطلاق الرجعي إلى بائن [1] .

إن الضابط الذي وضعه المالكية في التفرقة بين الفسخ والطلاق ؛ وهو أن الفسخ يكون حيث تطرأ حالة لا يجوز فيها استمرار الحياة الزوجية لسبب لا يرجع إلى أحد الزوجين ، وماعدا ذلك فيعد طلاقاً .

---

(١) انظر : أحكام الطلاق في الفقه الإسلامي : د . عبد الرحمن الصابوني – دار القلم ، الإمارات العربية ١٩٨٧ ص ٢٧ .

**وحالات الطلاق هي :**

١- طلاق الزوج لزوجته .

٢- المخالعة بين الزوجين .

٣- التفريق بسبب الإيلاء .

٤- التفريق للعلل والأمراض .

٥- التفريق للإعسار في المهر والتفريق للإعسار بالنفقة إلاّ أن التفريق للإعسار بالمهر طلاق بائن ، بينما التفريق للإعسار بالنفقة طلاق رجعي .

٦- التفريق بسبب عدم الكفاءة .

٧- التفريق بسبب غياب الزوج عن زوجته .

٨- التفريق للشقاق والضرر والإساءة بين الزوجين .

**أما حالات الفسخ فهي عند المالكية :**

١- إذا طرأ على الزواج سبب من الأسباب التي تؤدي إلى التحريم المؤبد .

٢- التفريق لفساد العقد منذ تكوينه .

**أما ما يعد من فرق الفسخ عند الحنابلة والشافعية :**

١- التفريق بين الزوجين للعلل والأمراض .

٢- التفريق للإعسار بالنفقة الزوجية والإعسار بالمهر .

٣- التفريق بعدم تمام اللعان ، وعند الشافعية يتم الفسخ بعد لعان الزوج .

٤- التفريق بسبب إباء أحد الزوجين الإسلام أو ردة أحدهما .

٥- التفريق لعدم كفاءة الزوج للزوجة .

٦- الفساد الطارئ على عقد النكاح ، كظهور رضاع من الزوجين لم يكن أحدهما يعلم به ، أما إذا كان على علم به حين العقد فالزواج باطل [(١)] .

## مشروعية الطلاق وحكمة تشريعه :

الأصل في مشروعية الطلاق : القرآن الكريم والسنة النبوية وإجماع ، والمعقول :

**١- القرآن الكريم** : وردت آيات كثيرة في بيان حكم الطلاق منها قوله تعالى :

**﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾** [ البقرة : ٢٢٩] .

---

(١) انظر : أحكام الطلاق في الفقه الإسلامي ، مرجع سابق ٣٠-٣١ ويحسن الرجوع للمصدر المذكور لشرحه واستيفائه قضايا الطلاق في الشرع الإسلامي .

وقوله تعالى : ﴿ لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦)﴾ [ البقرة ] .

**٢- السنة النبوية** : قوله ﷺ : " أبغض الحلال عند الله الطلاق " ومن السنة الفعلية طلاق النبي ﷺ زوجته حفصة ، ثم مراجعتها . وإقراره طلاق عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ لزوجته بعد أن بين له طلاق السنة .

**٣- الإجماع** : انعقد الإجماع منذ عصر الصحابة حتى عصرنا على مشروعية الطلاق .

**٤- المعقول** : إن الحياة الزوجية إذا استحال أو صعب استمرارها وأصبحت جحيماً لا يطاق؛ فليس من المعقول الاستمرار على وضع يتنافى مع أدنى مبادئ الحرية الفردية ، إذ تلزم شخصين بالحياة المشتركة المريرة المليئة بالمشكلات والصعوبات حتى الموت ، دون أن تتيح لهما فرصة التفريق الذي يبدو فيه الخلاص والنجاة ؛ لما هما فيه بعد فشل محاولات الإصلاح بينهما [1] . وبذلك نجد أن أموراً يظن أنها قاسية على النفس الإنسانية شرعها الإسلام كالتعدد والطلاق ، إنما هي الدواء الناجع للكثير من المشكلات التي تنشأ في العلاقات بين الزوجين . وضع طريقاً حلالاً _ قاسياً على بعض النفوس - لكنه هو الخير كله .

**السلبيات والإيجابيات في العلاقات الاجتماعية :**

ما من شك أن كل حياة يعتريها الجيد من السلوك والسيئ . ويعتريها - في حقبات متفاوتة من الزمان - الخير عندما تهتدي إليه ، والشر عندما تضل طريق الخير ، وهذه صفة الأمم السابقة والحالية واللاحقة ، وما من أمة قد ثبتت على مسار واحد ، ولو لفترات بسيطة ، والدارسون للتاريخ ولمجريات الأحداث وأعمار الأمم والشعوب يقفون مدهوشين أمام التناقضات الهائلة في حياة بعض الأمم والشعوب ، ففي الوقت الذي ينتشر به العدل والحق والمعروف ؛ ينقلب الوقت ليتفشى الظلم ، والقهر والمنكر ، وقد أشار الله تعالى إلى هذه السنة الكونية بقوله : ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنتَه لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا(٤٧)وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا(٤٨)فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولا نَبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا

---

(١) انظر : أحكام الطلاق في الفقه الإسلامي ، مرجع سابق ص ( ٣٢ ) .

(٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولا نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا(٥٥)وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠)﴾ [ مريم ] .

وليس وجود الأنبياء فقط هو زمن الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما أشار الله تعالى ، ولكن العدل يقوم على أيدي المصلحين والصالحين والمؤمنين ، ويعود الناس إلى الهدى والرشاد ، والأنبياء في السابق إنما هم منذرون ومبشرون لأقوامهم ؛ إلاّ ما كان من رسالة محمد ﷺ الذي أرسله الله تعالى رحمة للعالمين : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [ الأنبياء] وبين طيات الزمان وخيرات المكان فإن الإصلاح يسمو وينتعش وفي أوقات أخرى يسود الفساد والمفسدون وتتخبط الأمم بين الخير والشر إلى أن يقضي الله أمره فيها . فمنها من بادت ولم يعد لها من قرار ، ومنها من استمرت أحقاباً تطول وتقصر حسب إرادة الله تعالى ومشيئته .

وباعتبار أن الإسلام هو الدين الخاتم ومحمد النبي الخاتم ﷺ ، فقد تكفل الله تعالى بحفظ رسالة الإسلام إلى يوم الدين . وقد يضل المسلمون فيتبعون الشهوات وتهدم المساجد والبيع ويقتل المسلمون في مكانٍ لكنهم قطعاً قائمون في أماكن أخرى بلا انقطاع . وهذا التواجد قائم دائم مستمر لشمول الإسلام واستمراريته . وبذلك فليس في عيب الإسلام ضلال المسلمين في مكان ما من العالم أو في أكثر العالم ، ولكن العيب بالمسلمين الذين يبتعدون عن دين الله وهدايته فيضلوا ، وينجرفوا ويطبقوا مبادئ وأفكار خاطئة من ترتيب الناس وأهوائهم ، ويتركوا أمر الله تعالى فيظهر التناقض بين المسلمين وسلوكياتهم في أكثر الأحايين .

وهذا الزمن ونحن في حقبة فسدت بها الأخلاق ، وضعف المسلمون ولم يأخذوا كما كان من قبلهم بالإسلام ويتمسكوا به . فطغت عليهم الشهوات ، وقل فيهم الدعاة حيث إن سنة تحكم في الأرض أن يسود الطغاة في وقت وزمان ، ولا يجدون غير دعاة الإسلام عدواً لهم . وهذا ما بدأ به القرن الواحد والعشرون للميلاد استمراراً للقرن العشرين حيث إن المسلمين مفرقون ، ممزقون متخلفون ، جاهلون تركوا العالم يأخذ بأسباب الاختراع والإنتاج والتفوق ، وتحولوا هم إلى أداة استهلاك لمنتجات أعدائهم ، وغدت أرضهم وأعراضهم نهباً مباحاً لأعدائهم ولم يسلم من نواحي

حياتهم العامة باب إلاّ وولج الفساد فيه ، وهذا من الطبيعي أن يؤدي إلى خلل كبير في الحياة الاجتماعية ، التي تعتبر المرآة الصادقة عن مفاهيم الشعب ومبادئه ، ومعتقداته . فكلما التزم المجتمع ابتداء من الفرد رجلاً وامرأة ، والأسرة صغيرة أو كبيرة ، والمجتمع الكبير والصغير ، كلما التزم هؤلاء بمبادئ الإسلام وأوامره ؛ كلما أضحى المجتمع مجتهداً فاضلاً يعطي الخير لأبنائه وللناس كافة، وإن ترك هؤلاء مجتمعين أو متفرقين أوامر الله تعالى في كتابه وتوجيهات النبي ﷺ ، واجتهادات المصلحين ، فإن المجتمع يسوده الوهن والضعف والتفكك الأسري والانحلال الأخلاقي. والشواهد من تاريخ الإسلام قائمة تنبئ عن درجات السمو ،وتنبئ عن التردي في درجات الدنو ، وحتى في وقت واحد يسود الخير في مجتمع ، ويسود الشر في ناحية أخرى ، ووجه المجتمع هو الناطق بما في هذا المجتمع من فضائل أو رذائل .

ويبقى المجتمع الإسلامي _ رغم كل السلبيات التي سادت هذا المجتمع حالياً – يبقى قياساً على غيره من المجتمعات في الدرجات العلى من الفضائل ، وإذا ظهر في مجتمع المدن التأثير الفاحش في الحضارة الغربية السائدة في العالم الآن ، فإننا نرى أن مجتمعات كبيرة جداً ومتنامية جداً وطويلة جداً تعيش في الأرياف والمدن الصغيرة ما زالت على دينها وعفافها وسيادة الأخلاق فيها . فإن الأمة التي أخرجت للناس كخير أمة لا يمكن لها بحال من الأحوال التخلي عن فضائلها وعن أعرافها ، عن قيمها وشرفها وسمو الأخلاق فيها . وإن الروابط الاجتماعية ما زالت الأقوى بين المسلمين ، رغم المحاولات الجادة التي تحاول أن ترفع قيمة الخارجين على الإسلام ، الذين تؤيدهم القوى الفعالة العالمية ، وتمدهم باستمرار لكافة نواحي القوة والاستمرار . يبقى المجتمع المسلم على التزام قريب أو بعيد بالإسلام والابتعاد عن المحرمات التي حرمها الإسلام والتقرب والالتزام بما أمر الله تعالى وما أحل ... وقد يحلو للكثير من دعاة الشر والمنكر أن يظهروا هذا المجتمع في وسائل الإعلام والكتابات على أنه مجتمع قد انتهى وجوده أو قارب على وجه الأرض .. فإن تلك الأبواق لا تفتأ تهدم في مجتمع المسلمين ، وتظهر أن أثراً ما قد تُرِكَ في هذا المجتمع الذي يتصدع أو أنه فعلاً تصدع .

قضية سفور المرأة ؛ والحرب المعلنة لحريتها وإخراجها من القرون الماضية ، فإن هذه الدعوة تعتبر بانحسار كبير الآن بعد أن سادت في مجتمعات المسلمين لحظة ؛ لكن المرأة المسلمة عادت بنفسها ؛ لتبين أن هذا المظهر ليس للمسلمة ، فَارْتَدَتْ المسلمات حجابهن في كل مكان ، وحاول دعاة الفكر إلى شن حرب شعواء طالت بعض البلاد الإسلامية ، لكن الدعاة الضالين وهم على سدة الحكم ، وممسكون بزمام المبادرة والقوة والسلطان هزموا ، أما تحدى المسلمات وصبرهن

وثباتهن ، وقضايا أخرى وهو التعدي على الأسرة ومحاولة تفكيكها بمحاربة المباحات والحلال وتقوية الحرام والأخذ به عنوة ، عادت تلك الدعوات لتنحسر رغم أنها ثبتت بقوانين ، وأعطيت السلطة كالتعدد والطلاق ، والزنا ، وفساد الأسرة وبقيت الأسرة المسلمة العنصر القائم القوي الدائم لتشكل المجتمع الإسلامي ، كما أن نشر الفقر والمرض الذي قاد الكثيرين إلى مخاضن الفساد والتردي والمنكر ، فإنه ينحسر أيضاً ؛ مثله مثل كل العادات التي تجرأ الكثيرون بفرضها على المجتمعات المسلمة ، واستسلم دعاة التحرر والفكر وساد الصالحون والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر .

وبهذا .. فإن السلبيات الكثيرة التي تسود أو سادت في المجتمع الإسلامي فإن النتائج الظاهرة هو عودة هذه المجتمعات إلى الإسلام والإيمان ، بعيداً عن كل المغريات التي قدمت للمجتمع الإسلامي كحلول لمشكلاته وكأدوية لأمراضه وكمعرفة لتخلفه ، عاد الكثيرون من دعاة الإباحية إلى الأخذ بما عند الإسلام من فضائل وطبقوها على أنفسهم قبل غيرهم . وهذا ما نجده في تحولات كثيرة في المجتمعات الإسلامية إلى الفضيلة والحق والسلام .